زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

بقلم

ملخص ما نشر سابقا

مريم ابنة الراعية ساره من الراهب ايليا من البلاد هربت من دير الايتام في الناصرة لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لابيها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فطغاها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفا فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام ففاجأه عارف وقتله غيرة وهرب . فاتهمت مريم بالجريمة واعترفت وهي في السجن بما جرى للقس جبرائيل فانقذها بنفوذه وسار بها تاركا ديره الى طبرية ليستر عارها . وهنالك اقام رابا في بيت منفرد عند الحمامات المعدنية على مقربة من المدينة وربتا تلد وأقام لها خادمة اسمها هيلانة كانت غاوية فهداها واحسن اليها ولكنها لم تصدقه التوبة . فلما ولدت مريم سرقت هيلانة طفلها ليلا بايعاز امها الشقية واخفته عندها . واشاعت ان القس جبرائيل رمى الطفل في البحيرة . وبلغ الخبر مريم فاغمي عليه ولكنه اوضح لها ما يعرفه من حقيقة الامر . الا انها كرهت المعيشة معه فخافته وهربت الى فرنسا مع سائحة افرنسية استأجرتها لتعليم ابنتها العربية . ورآها في الباخرة نجيب مراد فمال اليها وزارها بعد نزلها في منزل صيدتها ببيروت

تابع ما قبله

فضحك نجيب لهذا الوصف وسألها اذا كانت تحب ان ترافقه يوم الجمعة القادم ليخرجها على المدينة .

— معاذ الله . اكون ممنونتك .

فاستأذن مدام لامار بذلك فاذنت · وجاء في اليوم المضروب بين يوعده فاخذ مريم في السيارة الى الحرج وتناولا طعام الظهر في قهوة هناك · وعادا بها الى المدينة بعد الظهر ففرجها على قصر اللوفر وقبر نابوليون · ثم تناولا العشاء في قهوة في البوليفار الكبير واخذها بعدئذٍ الى تياترو تشاهد فيه الرقص الذي أعجبت به · ولما ودعها عند الباب وعدها بيوم آخر مثل هذا بل احسن منه الاسبوع القادم · فباتت مريم تلك الليلة فرحة مدهوشة ، كأن ما شاهدته من غرائب المدينة وعجائب آثارها ملأ فؤادها فصرفه عن رفيقتها ، بل مضيفها ، بل عشيقها ؛ ولم يخطر نجيب في بالها ذاك اليوم الا في صفة الدليل ·

ولما جاء المرة الثانية قالت له مدام لامار

— يجب علي ان اشكرك عن مريم · فقد اثبت عليك ثناء كبيراً ونوهت بكرمك وشرف اخلاقك ·

— هذا تعطف منك جميل ، مدام

— واليوم الى اين ؟

— الى مُرسلي · واذا عدنا باكراً نزور الكسبور

— حسن · حسن · تحذري ، يا مريم ، عند اجتيازك الشوارع · وعسى ان تعجبك قصورنا وآثار بلادنا · والأسفاه ! اين هي من آثار بلادكم المقدسة ؟

خرّت السيارة وعجت وراحت تلتهم الطريق التهاماً وعند التلغراف

الى جانبيها تعلو وتهبط كأنها صفوف من رواقص المجن او اشباح من عالم الخيال ، والاشجار تهوي فوق حقول خضراء تمر مسرعة كصور السينما توغراف ، والبيوت هنا وهناك تبدو كالغيوم البيضاء والسوداء ثم تمحو كالخيال فتولي كالخيال ، ومريم ، وقد اعتراها الخوف ، جامدة ساكتة كأنها تقبض على قلبها بيدها ، ونجيب يحدثها هازئاً ضاحكاً ، وهي لا تكترث

ولما وصلا الى فرساي دارا في القصر ساعة يتفرجان على الصور فيه والتحف والآثار . ثم تناولا الغذاء في قهوة هناك فخمة وخرجا يتنزهان في جنينة القصر المتقطعة النظير . وبينما هما جالسان امام نوفرة من النوافر المتعددة هناك اعطى نجيب مريم علبة خضراء صغيرة ففتحتها فاذا فيها سلسلة من الذهب ذات ايقونة في شكل ورقة الخندقوق فيها ثلاثة حجارة من الماس

— يا ربي ! لا اقبلها منك هذه ثمينة جداً ولا تليق بي

— ما يليق بالامبراطورة اوجيني يليق بك . خرج نابوليون الثالث صباح ذات يوم من هذا القصر يتنزه وخطيبته الاميرة أوجيني فرأت تلاث نقط من الندى على ورقة من الخندقوق فأعجبت بها جداً . فبعث الامبراطور الى صائغ القصر في باريس يأمره بصنع ايقونة في هذا الشكل . فاهداها اياها .

— القصة جميلة ، ولكنها لا تناسب . فلا انت نابوليون ، ولا انا اوجيني

— الحب يا مريم يتوج المحبين ويجعلهم ملوكاً .

فوقفت مريم اذ ذاك واحنت رأسها امام نجيب تقول

— احييك يا صاحب الجلالة . مريم معلمة المسيو فرنسوى لامارتين

ثم قالت وقد غيرت لهجتها

— لا . لا . اذا كنت تقصد ان تخطبني بهذه الهدية فانت واهم . لا يا افندي لا . فقد قلت لي ان الزواج عبودية .

— عند الاسلام يا مريم لا عندنا

— انما المرأة مرأة ، والرجل رجل ، ان كان عند الاسلام ، او عند النصارى ، او عند اليهود . اقبل هديتك واقبلها . ولكن لا تحرمني نعيماً انا فيه . خلني عند مدام لامار اعلم سيدي المسيو فرنسوى اللغة العربية . (وجعلت تقلده) واحد . اثنين . أربا . كمه . سبا . تامانيه . يخزي العين ما رأيت اذكى منه . بعد شهرين يصير استاذاً عربياً . قم بنا نرجع الى البلد . فقد اشتقت الى سواد عينيه .

— عيناه زرقاوان

— لا تؤاخذني ، ولكنهما يظهران احياناً كلون البحر اذا هاج او كلون ثياب العرب اذا « باخت »

وكأنها انتبهت اذ ذاك الى شيء ففتحت كيساً من الحرير تحمله بيدها وجعلت تفتش فيه .

— مالك .

— نسيت لائحة الطعام . ولا ارجع الى البلد بلاها . فعرّج نجيب على القهوة وجاءها بها . فقلبت فيها عينيها وتنهدت .

— اكثر من مائة لون . يا ربي ! ما اجشع هؤلاء الافرنج . ومن يقدر

ان يحفظ اسماءها كلها . سابذل جهدي . فلا يليق بالخادم امراً فاضلاً يعلمني ما ينبغي ان آكل واشرب . عيب . عيب . اذا عزمتني في الاسبوع القادم اعدك اني اطلب الغذاء دون ان استشيرك او ألجأ الى الخادم واترك ان اختياري يعجبك . امش .

وبعد العشاء في المدينة تلك الليلة سألها قائلاً :

— وهل تزوريني الان في بيتي .

— في بيتك ؟ اتخطب العصر وتتزوج المساء . أو لم اقل لك انني لا اقبل هديتك كخطبة ؟ لا

فضحك نجيب . ثم سألها أتحبين ان تسمعي الغناء الافرنجي ؟

— لا . لا . يمزق اذني .

— التمثيل اذاً —

— لا افهم منه شيئاً .

— الرقص .

— عليك نور . كما يقول ابن مصر .

فذهبا الى تياترو ترقص فيها راقصة مشهورة رقصاً شرقياً جديداً . فسرت مريم به اكثر من سواه . وقالت لنجيب — رقص اولئك البنات اللواتي يقفن على اصابعهن رقص يدهش . ولكن رقص هذه الامرأة يسكر كالخمر ، الله ما أجمل فنها وما ابدع حركاتها .

وبعد ايام ذهبت مريم والخادمة شرلت الى المخزن الكبير فابتاعت قميصاً

من الحرير صفراً ، وبعض قطع من الحرير الهندي واحراماً من السندس الاحمر القاني ، وآخر ابيض .

— وما غرضك يا مريم ؟

— ستريني — ادعوك غداً مساءً الى غرفتي

في ذاك المساء خلعت مريم ثيابها حتى جواربها ولبست تلك القميص وشدت الاحرام حول خصرها منبسطاً على حقويها معقوداً تحت بطنها ورفعت الاحرام الابيض بيديها امام وجهها فبدت كالراقصة الشرقية واخذت ترقص رقصها ، ثم دعت شرلت فدهشت اذ رأتها في ذاك الزي وراحت تستدعي سيدتها ، فجاءت مدام لامار يتبعها المسيو فرنسوى ، وأغرق الجميع في الضحك والاستغراب ، ثم اخذت مريم تقلد الراقصة المشهورة فضجت الغرفة غرفتها بالتصفيق والهتاف ..

Tres bien! tres bien!
C'est excellent!
C'est epatent!
Encore encore!

وهذا اول ظهور مريم راقصة ، غرفتها المسرح وغرفتها التياترو وسيدتها وسيدها والخادمة شرلت الحضور ، وقد فازت بظهورها فوزاً مبيناً ، فتشجعت واستمرت تتمرن على الرقص وفي تلك الليلة بعد انتهاء الرواية عاد المسيو فرنسوى يطرق باب الراقصة الشرقية التي افتتن بها ، ففتحت مريم الباب فرأته واقفاً يفرك يديه ويردد امثولته مبتسماً — واحد ، اثنين ، أعجبك

فقالت مريم وقد لاح الغيظ في جبينها — اعذرني يا مسيو فرنسوى · فقد قلت لك انني لا اعلم في الليل ·

— اهبك · اهبك ! اهبك ! !

— ولكني « اهب » ان انام · اعذرني ·

واقفلت اذ ذاك الباب · فتقهم فرنسوى لامار منها وكن لها في قلب حبه البارد شيء من العداء · على انه كان يسألها دائماً ان ترقص فتفعل · لان مريم وقد شغفت بالرقص استمرت تمارسه في غرفتها امام المرآة فتخترع من الحركات والاشارات والسكتات والوقفات فوق ما كانت تشاهده على مسارح باريس · فازداد جسمها مرونة وازداد سيدها هياماً بها · وبدأت تشعر بوحدة في باريس شبيهة بوحدتها على شاطىء البحيرة

— ما بالك اليوم كئيبة ؟ هل حفظت امثولتك ؟ عليك ان تطلبي العشاء الليلة حسب وعدك ·

— لم احفظ من تلك اللائحة شيئاً · كنت مشغولة عنها بالرقص ، وبالتعليم ، وبالضجر ·

— أبدأت تضجرين في باريس ؟ هذه خطيئة مميتة

— لا اعرف ما هي الخطيئة المميتة · ولكني عرفت الضجر ، والقرف ، والسأم · فاعلم يا نور العيون ان سيدي وتلميذي يريد ان يكون سيدي وزوجي · ثروة طائلة وعينان « بائختان »

قصر فخم ، ووجه لحيم · كن دافىء ويد باردة · أفلا تهنئني او لست

ممن يُنبطن من النساء ؟

— ويشتين في غبطتهن · نعم ·

— لله من عاشق · يجثو امامي على ركبتيه ويبسط ذراعيه · ويحني رأسه ويشخص بعينيه · ثم يلطم صدره بيده البيضاء الباردة ويتلو امثولته عليّ — أهبك · اهبك ! اهبك ! ! ثم يأخذ يدي فيقبل رؤوس انامله قبلات « نار الجحيم ابردها » ·

الله · الله ! أهكذا يحب الافرنج ؟ أهبك ! اهبك ! اهبك ! ! قرف قرف قرف ! ! — لا تشرب زجاجة الشمبانيا وحدك

— لا تؤاخذيني · فقد شغلت عنك بلذيذ حديثك

— هذا سر بلادي · لم ازل اذكر بيتاً من الشعر —

« شربنا على ذكر الحبيب مدامة »

— ومن هو الحبيب ؟

— اترى أغني في الطاحون ؟ سيدي وتلميذي المسيو فرنسوى لامار

— ارفع كأسي على صحة المسيو فرنسوى وصحتك

— اف عليك ·

ورمته مريم بشيء من لب الخبز كانت تعجنه ناقمة بين انامله ·

فرفع نجيب يده الى شفتيه واشار بها اليها شاكراً ·

— قل للخادم ان يعجل بالقهوة · هذه الانغام تحزنني جداً

— اذاً لا تريدين ان تقضي السهرة في ال « أوبرا »

— بلى . احب ان ارى ما تسميه « باله » فاحتمل الموسيقى والغناء او بالحري الضجيج والصياح من اجل الرقص رقص « الباله »

ولكنها لم تعجب بهذا النوع من الرقص كثيراً . فقالت وهي خارجة من الـ « أپرا » — يقدر الانسان ان يعلم الدب والسعدان الرقص . رقص هؤلاء البنات علمه اكبر من فنه . اما رقص تلك الراقصة المشهورة فالفن فيه اكبر من العلم . فيه حركة خصوصية وما يدعوه الشعراء ارتجالاً . ابتكاراً

— ستزور الان اكبر قاعة عمومية للرقص في باريس فتشاهدين فيها ما لم تشاهديه بعد من انواع هذا الفن . وركب واياها سيارة سارت بهما الى ناحية الـ « أبزرڤاتور » ووقفت امام صرح كبير فخم كأنه من صروح الحكومة او من قصور الملوك الاقدمين . فقالت مريم وهي داخلة يظهر ان لا شغل لهؤلاء الافرنج غير الاكل والشرب والرقص .

— وتوابعها . لا تنسي توابعها .

— السكر والموت ؟

— بين الاثنين فترة لا يدري نعيمها بشر . انما هي الحياة .

— لا اعرفها .

— ستعرفينها . ما قولك بهذا النوع من الرقص ؟

— مليح . ولكن في رقص العرب رجالاً ونساء ادب . ولا ادب في هذا . أنت من رأيي ؟ بلى . الرجل الذي يخاصر امرأة في قاعة عمومية على هذا الشكل ، مثلاً ، وذاك واشارت الى بعض الرجال الذين لا يكتفون

بالمخاصرة عَلَى ما يظهر ، هذا حيوان لا بشر . قم بنا . مثل ذي المشاهد تغيظني . تزعجني .

وخرجت مريم من تلك القاعة وقد ضاقت فيها صدراً .

فشيعها نجيب الى البيت رودعها حسب عادته عند الباب وكانت اذ ذاك الساعة الثالثة بعد نصف الليل .

رمت مريم بنفسها عَلَى الفراش تلك الليلة وهي تضحك ضحكة اليأس وتقول — هل هو يا ترى مثل انس جبرائيل ؟ هل هو مثله ؟ ثم صرّت باسنانها . ولعنت حظها . وما نامت الا قليلاً فنهضت عَلَى عادتها باكراً وهي خامدة الذهن ، بطيئة الحركة ، ثقيلة القلب ، سيئة الخلق ، حردة ناقمة .

فجاءت سيدتها توبخها وقد علمت انها تأخرت ليلة البارحة في عودتها الى البيت .

— هذا مضر بصحتك يا بنتي ومشين بسمعتك

— ليس امري في يدي مدام .

— انا مسئولة عنكِ . جئت بك الى باريس —

— وندمت ؟ دعيني اذاً ارجع الى بلادي .

— هل انت مريضة يا مريم هل تشكين ألماً ما .

— لا ، مدام ، انا حزينة . ولدت شقية ، وسأعيش شقية ، وأموت شقية . ولا اقدر ان اعلم المسيو فرنسوى ولا ... ولا ... احسنتِ اليّ مدام فلا اسيء اليكِ . ولا اقبل ما لا ينعمني ويشقيك . ابنك مدام ابنك ...

— فهمت يا مريم . طيبي نفساً ، يا بنتي ، سأنظر في امرك وامره .

وكانت مدام لامار قد علمت بمكنونات ابنها ولواعج قلبه من الخادمة شرفت ومنه ايضاً . فاحتالت عليه في ابعاده عن مريم الى ان تنظر ما تصنع في امرها . بعثته ليتفقد شؤون كروم لها في اواسط فرنسا . فسافر المسيو فرنسوى وهو لا يدري ما ورآء سياسة امه ، ودع معلمته اسفاً متأوهاً ووعدها ان يعود بعد اسبوعين .

وجعلت مدام لامار تفكر في مصير مريم . ليس من العدل ان تطردها من البيت . وليس من الحكمة والرحمة ان ترمي بها الى البحر في باريس . بلا قيد ولا شراع . أتعطي اسمها الى سمسار المخدم في المدينة فيدخلها بيتاً تخدم فيه ؟ أتبعثها الى كرومها فتخدم هناك مع الاجراء ؟ أتقدمها الى صديقة لها سألتها عما اذا كانت تعرف احداً يعلمها العربية ؟ أو ترجعها الى بلادها . لقد حارت مدام لامار في اي من هاته الطرق تتبع

ومرّ الاسبوع ومريم تفكر تارة في اتخاذ الرقص مهنة لها وتارة في نجيب مراد . وفي كلتا الحالين وطنت النفس على الخروج من بيت مدام لامار . ومن طباع مريم انها اذا مقتت امراً فلا تقيم عليه . واذا كانت غير راضية في بيت فتهجره . وشدّ ما كان غيظها لما مرّ يوم الجمعة ولم ترَ فيه ابن بلدها . فقالت في نفسها — هل ملّني فهجرني ؟ حفظه الله ! سأبقى في باريس وسأصير من راقصاتها المشهورات .

ولكن نجيباً كان في لندرا يقضي بعض حاجات تختص بأشغالهم المالية

بسوريا . فاقام هناك اسبوعاً وعاد الى باريس .

وفي صباح الجمعة من الاسبوع الثاني بعد سفر المسيو لامار كانت مريم خارجة من البيت قصدها التنزه فألتقت بنجيب في الباب وهو قادم اليها . فاستأنست به وفرحت للقائه .

— ظننتك سافرت من باريس .

— ظنك في محله . وقد كتبت اليك من لندرا

— لم يصلني كتابك .

— عجيب ! ولكن من حضر ما غاب . تفضلي .

— الى اين ؟

— الى جنة عدن .

— جنة عدن ؟ سمعت معلمتي في الدير تقول مرة ان جنة عدن في بلادنا

— في بلادنا اخبارها وفي باريس آثارها .

ولما استقرّ نجيب في مركزه واقفل الباب ادار السائق دولابه ونفخ بوقه وسارت السيارة على رحمة الله تتخلل صفوفاً من العربات في شوارع يموج في جانبيها مزدحم من البشر لا نهاية له ولا بداية

— قد شاهدت كل متاحف باريس وآثارها واكبر مسارحها واهم قهاويها وأغرب ما فيها . بقي عليّ ان اريك ما لم تريه بعد وما لم يرَه الا القليلون من السياح وافراد من كبار الفرنسيس .

— وما هو يا ترى ؟

— هو سر لا يفتحه غير هذا —

واستخرج من جيبه مفتاحاً اصفر صغيراً · ثم قال —

هذا المفتاح عزيز عجيب · لا يظفر به الا الامرآء والاعيان وكبار المأمورين والسياسيين · وبعض الاميركان المجانين الذين يتقيأون اموالهم امام الاجانب هذا المفتاح قد يكون حمله احد رؤساء الجمهورية او احد اعضاء «الاكاديمي» او احد الوزراء او احد ملوك اميركا · فاعلمي ان في هذه المدينة — فيم بعض زواياها الشريفة — جنات لا يدخلها غير البله الاغنياء او ابناء باريس الكبراء ·

— ومن اي الطبقتين انت ايها السيد الشرقي ؟

— هذا يوم جد لا يوم مزح · ها قد وصلنا انزلي عاني يدك

وكانت قد وقفت السيارة في زقاق مظلم ضيق مهجور امام بيت ظاهره حقير وبابه وشبابيكه مقفلة كلها ·

— ويلي الى اين تسير بي · أهذا بيتك يا نجيب ؟

— بيتي في النزل الذي تعرفينه · وهل سقطت الى هذه الدرجة في عينيك لتظني اني اقيم في مثل ذا البيت وفي هذه الناحية ؟

وكان قد فتح نجيب الباب بذاك المفتاح السري الصغير ·

— ادخلي · ادخلي · ما بالك ؟ أتخافين وانا دليلك ؟

فدخلت مريم واذا هي بين بابين مقفلين في صفة مظلمة باردة ، ففتح نجيب الباب الثاني وصعد واياها درجاً سجاده الاحمر الثقيل يخسف تحت

الاقدام · وعلى قاعدة درابزون البراق تمثال فتاة عارية تحمل قنديلاً كبيراً بيديها المرتفعتين فوق رأسها · وفي زاويتي الصفة —صفة الدرج— تمثالان من الرخام يمثل الواحد منهما شاباً رومانياً يحمل اكرة كان يريد رميها· ويمثل الثاني امرأة تخلع ثوبها وقد بدا نصف جسمها عارياً من احدى كتفيها الى قدميها · وعلى رأس الدرج تمثال آخر يمثل كاهناً يحرق بخوراً امام الهة من آلهات الاقدمين · وعلى الجدران المبطنة بورق فخم من لون السجاد صور شتى تمثل فصولاً من كتاب الحب الابدي

صعد نجيب الدرج ولم يحفل بهذه التحف والاثار كأنه ألفها · واما مريم فلما شاهدت الصور وقفت خائفة واجفة

— ما هذا · وما ذاك ؟ لا · لا· لا احب هذا البيت لا احبه · دعني اخرج منه · دخيلك ·

— أتروعك هذه الصور ؟ ألم تشاهدي مثلها في قصر النوفر ؟

— ولكن ذاك محل عمومي آهل بالناس · وهذا البيت مهجور — ربي ! اخاف من ذي السكينة · تذكرني بسكينة الدير · وسكينة القبور ·اخاف من نفسي ومنك فيه ·دخيلك · لنخرج من هنا

— كما تريدين · اذا كانت الصور ترعبك فادخلي هذه الثاعة الخالية منها

ووقف امام سجف احمر عند رأس الدرج وفتح باباً وهو الباب الوحيد هناك واخذ مريم بيدها فادخلها · فاذا هي في ردهة كبيرة كل جدرانها مبطنة بالمرايا من الارض حتى السقف لها شبا كان مقفولان عليهما ستارات

من المخرج الثمين فوقها سجوف من المخمل الازرق الفاتح · والفرش والسجاد من لون السجوف · والكراسي مذهبة الاطار محفورة عليها شارة احد ملوك الفرنسيس · كأنها اثر من الآثار القديمة

وقفت مريم في تلك الردهة المتلألأة تطوقها بنظرات مستغربة فتمثل لها من نفسها اشخاص لا تُعد متعكسة في المرايات امامها ووراءها ورأت من نجيب مئات حولها يضحكون · ثم اخذت تدور فيها فتجس الجدران كالعمياء فلم تهتدِ الى باب واحد · حتى ان الباب الذي دخلت منه اختفى اثره تماماً

— وستزين ما هو اعجب من هذا · فلا تجزعي · كوني ثابتة الجأش ليس في الامر سحر · ولا في البيت جن · أترين هذه الطاولة ؟ لا شيء عليها سوى هذه الازاهر · عليكِ نور

ثم تقدم نجيب الى الحائط فكبس زراً في اطار من أطر المرايات يكاد لا يبدو للعيان · ثم نقل الى الحائط المقابل له وكبس زراً آخر فانفتح اذ ذاك باب فادخل مريم منه يقول — اسرعي · اسرعي · ثم أغلق الباب واقفله من جهته الخشبية لا من جهة المرآة · واصبح ومريم في غرفة صغيرة اعتيادية مفروشة بديوان شرقي وثير حافل بمخدات الريش والوسائد الستدسية · وعلى جدرانها صور بعض الآلهات اليونان

— هذه غرفة الانتظار · وهذا باب الحمام وفتحه نجيب وكبس زراً فنورت انوار الكهرباء في حمام من الرخام الابيض يبرق كالمرآة المصقولة

— وهذا باب آخر ظاهر · لا شيء سري في هذه الغرفة الصغيرة · تفضلي

ادخلي الى هذه الردهة · فدخلت مريم فاذا هي في ردهة اخرى كبيرة ابوابها سرية ·ومخارجها خفية · وفرشها وسجادها وسجوفها والآنية فيها من اللون الاصفر الغامق او الذهبي القديم · في وسطها ديوان شرقي قباله على الجدران الثلاثة مرايا طويلة بينها صور تمثل اطواراً من مشاهد الحب · وفي احدى زواياها سرير اميري ذهبي العمد سندسي القبة

— مريم هذه جنة عدن · ولكن الجنة الخالية من العاشقين انما هي كالقفر السبب او كالطلل الدارس · اخلعي برنيطتك · اخلعيها

فامتثلت مريم امره · ثم وقف باسطاً ذراعيه ينظر اليها مستعطفاً فوقعت على صدره جائشة باكية ·

— أتبكين ونحن في الجنة ؟ — تعالي اريك الان الاعجوبة ·

فكبس في موضع تحت صورة من الصور فانفتح الباب فخرجا فاذا هما في غرفة الانتظار ثم فتح الباب الثاني فاذا هما في ردهة المرايا بل في ردهة المائدة · فوقفت مريم امام الطاولة وهي حافلة بآنية الفضة والصحون والزجاجات ·

— قلت لي ان لا جن في هذا المنزل · فمن جاء بهذه الاشياء كلها ؟

— اله الحب · رب العاشقين · اجلسي

ورفع نجيب اغطية الفضة عن مجون يتصاعد منها البخار وتفوح بروائح اللحوم والبذورات الطيبة · واذا هناك غذاء او ما يدعوه الفرنسيس ترويقة مؤلفة من اربعة ألوان ومعها الحلوى والجبن والثمار وركوة من القهوة على

سراج له صفيحة من الحديد اشعل نجيب النار تحته لتظل القهوة فيها حامية. والى جنب المائدة عروسها ، بل بيت شعرها ، ذات الفم الذهبي غائصة في الثلج في دلو من الفضة . ولما فرغت زجاجة الشمبانيا سكب نجيب القهوة ونهض يمد الى زر في الحائط

— هذه الازرار تخيفني . كأنها جراب الكردي او خاتم سليمان

— بل هذه جراب الكردي . تعالي انظري .

جاءت مريم واجفة فاذا هي امام خزانة فيها انواع الاطعوم الباردة تحت اغطية من الزجاج . وزجاجات شتى من الخمر ومن المشروبات الروحية

— أمن هذه الزجاجة اسكب لك ام من هذه . ام من تلك ؟

شرتروز . بيندكتين . كريم دي منت . كنياك

— كريم دي منت .

— والان وقد وفينا الغذاء حقه نعود الى غرفة الانتظار فاريك بعدئذ اعجوبة ثانية .

فدخلت مريم ودخل نجيب وراءها بعد ان كبس الزر في الحائط فانفتح الباب المقابل لتلك الغرفة ودخل خادمان لا صوت لوقع اقدامهما ولا لحركاتهما ينقلان الصحون واواني المائدة . ويعيدان الى القاعة ترتيبها المألوف . وما هي الا برهة حتى انتهيا من عملهما فغلق الخادم الباب اذ خرج فأقفل من الداخل اي من قاعة المرايا .

— استلقي على الديوان ترتاحي . وقد تريدين ان تنامي قليلاً . ودخل

نجيب اذ ذاك غرفة النوم فخلع ثيابه و كبس زراً في الحائط فانفتح باب فاذا بخزانة فيها بعض ثياب النوم . فارتدى نجيب قميصاً واضطجع قليلاً للراحة ثم نهض بعد فترة وراح يستيقظ مريم فوجدها جالسة على الديوان تسند رأسها بيدها . فقال لها — تعالي اريك الان الاعجوبة في غرفة المائدة .

فخرج واياها الى غرفة الانتظار بعد ان كبس الزر فدخلت الخادمة من باب خفي تلبي الدعوة فرتبت الردهة وعادت من حيث اتت فاغلقت الباب فأقفل من الداخل .

— اين المائدة الان ؟ قلت لي ان لا جن في البيت ؟

فاطلعها نجيب على السر في هذه الحركات الخفية كلها

— لو كنت قيصرة روسيا و كنت انا عاهل الالمان وجئنا هذا المنزل السلطاني ، بل الجني تقضي به شهراً كاملاً نأكل ونشرب وننام محفوفين بخدم لا نراهم ولا يروننا مثل آلهة الحب التي تحرسنا فأكدي ان لا أحد في العالم يدري بوجودنا هنا — الا صاحب البيت . نعم . ولكن صاحب البيت يعرف ان بيته مأجور . ولا يعرف لمن من الناس .

فقالت مريم وصوتها يرتجف — وهل تنوي ان نقيم هنا شهراً

— ليكن ذلك اذا شئت . فنقول بعدئذٍ « على ثروة مراد السلام » !

— لا . لا . سيدتي توبخني ان لم اعد الليلة . ولا اطيق توبيخها . وقد تطردني من البيت .

— ستعودين ان شاء الله .

وفي تلك الليلة اكثرت مريم من الشمبانيا واغراها نجيب فوق ذلك بسيكارة من الحشيش فنست الفتاة سيدتها ونست حالها . فرقصت رقصة بنات الميكل وقدمت نفسها على مذبحه ضحية ذكية .

وفي صباح اليوم الثاني قال لها نجيب « انت الان ضيفتي ونحن عرب تقاليدنا عزيزة عندنا مقدسة . وحق الضيافة ثلاثة ايام» — ومريم وقد تخدرت مفاصلها ولم تعد تملك ارادتها أحنت رأسها ساكتة

ثلاثة ايام اقاما في ذلك المنزل الجني لا يريان من النور غير نور الكهرباء ولا يسمعان من الاصوات غير اصوات الغرام .

ولما خرجا اصيل يوم الاثنين ركبا سيارة الى الحرج .

— ساعة في الهواء النقي قبل ان تعودي الى البيت

— ويلي وماذا اقول لمدام لامار .

— قولي لها انك التقيت بسيدة سورية تعرفينها فمزمتك الى بيتها خارج باريس تقضين عندها بضعة ايام .

— ولا تنس ان تقابل مدير الـ « تياترو »

— سأقابله غداً وستظفرين بما تريدين ان شاء الله

— ومتى اراك ؟

— الاسبوع القادم حسب العادة .

اما مدام لامار فقلقت جداً لتغيب مريم وبعثت الى ادارة الشحنة باسمها تسألهم التفتيش عنها . وعولت اذا عادت الفتاة ان تسفرها الى بلادها حالاً .

فلما دخلت مريم مساء ذاك اليوم بهتت مدام لامار لرؤيتها على تلك الحال · مشحوبة الوجه ، غائرة العين ، خامدة الذهن ، بطيئة الحركة ·

— ماذا دهاكِ يا مريم · هل انتِ مريضة ؟ هل تشكين ألماً ما ؟

— لا مدام ·

— واين كنتِ ؟ اشغلتِ بالي جداً · اين كنتِ متغيبة ؟ فسكتت مريم · فاعادت عليها مدام لامار السؤال فاجابتها بصوت شجي خافت — ليس امري في يدي مدام · لم اعد أليق ان اكون خادمة لكِ ولا ان اقيم في بيتكِ ·

فاظلم وجه السيدة الافرنسية فقالت مناعمة

— حسن يا بنتي · فقد عولت ان اعيدك الى وطنك

— لا اعود الى وطني لا اعود الى فلسطين ·

فافترقت مدام لامار مفكرة وتركتها تلك الليلة وشأنها · وفي صباح اليوم الثاني جاءت تقول لها

— تعرفين يا مريم انني اريد صلاحك · واظن ان مصر توافقك ويكون لك فيها مستقبل حسن وساعطيك كتاب توصية الى احد اصدقائي هناك · فينبغي ان تسافري حالاً · الباخرة الافرنسية تبحر من مرسيليا بعد يومين · اجمعي ثيابك واغراضك · وسابعث الى الشركة ابتاع لكِ تذكرة السفر

وفي اليوم التالي تناولت مريم من يد سيدتها تذكرة سفر الى مرسيليا واخرى الى مصر في الدرجة الثانية وكتاب توصية الى جمال الدين باشا احد

مدراء البنك الافرنسي هناك · وغلافاً فيه عشرون ذهباً اجرتها

ودخلت شرلت اذ ذاك تقول — العربة في انتظار

— وهل أنزل الصندوق

— نعم ·

— الله يوفقك يا مريم · شيعي مريم الى المحطة يا شرلت

— لا لزوم لذلك مدام · لا لزوم · انا اقدر ان اعتني بنفسي

— حسن · بُن ڤويّاج — قولي للحوذي يا شرلت ان يوصلها الى محطة « ليون »

ولكن مريم لا تحب ان تسافر الى بلادها · بل لا تريد ان تترك باريس · فان لها من يعينها فيها عَلَى رغبتها · وينبغي ان تراه · ما العمل · ما التدبير · اطرقت الفتاة مفكرة بينما العربة تسير بها الى المحطة فلاح لها فكر بعث الامل في عينيها · ولما وقفت هناك · أنزل الحوذي صندوقها وحقيبتها فاستلمهما احد الحمالين · ولبث ينتظر امر السيدة المسافرة ·

صرفت مريم الحوذي ووقفت عَلَى الرصيف حائرة بائرة كأنها نسيت أمراً او اضاعت شيئاً · ثم استدعت حوذياً آخر وامرت الحمال ان يعيد امتعتها الى العربة ·

— لا اقدر ان اسافر الليلة ·

ونفحت الحمال بقطعة من النقود وأعطت الحوذي اسم النزل المقيم فيه نجيب مراد ·

ولما وصلت الى ذاك النزل الفخم في قلب المدينة استأجرت غرفة فيه وسألت عن ابن بلدها فقيل له انه سافر ·

— متى سافر ·

— مساء البارح مدام ·

— والى اين

فعمد الكاتب الى سجل يقلب في صفحاته ثم قال

— لا نعلم مدام · لم يعطنا المسيو مراد عنوانه ·

—(الفصل الثاني عشر)—

صعدت مريم الى غرفتها مساء ذاك النهار فخلعت ثياب السفر · ثم اغتسلت وصففت شعرها وجلت اظافرها · ثم ارتدت ثوباً من الحرير الاحمر الغامق تحجبه وتظهره غلالة من الخرج الاسود الفخم — وهو الثوب الوحيد من نوعه عندها · لبسته مرة واحدة فقط وذلك ليلة زارت الاوبرا ، ونجيب مراد — فبدت فيه مكشوفة الاذرع والترائب وسلسلة الذهب ذات الايقونة الحندقوقية في عنقها · وقد ظللت مؤخره ظلال خفيفة من ضفائر شعرها الاسود الكث المضفور في شكل يزدري العناية والتكلف · مسترخياً مستمسكاً · تدخل الطية منه في الطية مائجة كأنها حيات في احجارها وقد بدت الرؤوس من خلال ثنياتها ·

وقفت مريم بانحراف امام المرآة وقد مالت بوجهها تنظر الى الصورة المنعكسة هناك فأعجبها منها قدّها ، وانيق جانبها ، وانسلاك كتفها ، والضفائر

المسترخية فوق جيدها . ونزلت الى البهو الكبير وهي كما يقال فتنة للماليين تتناول العشآء فاستقبلها رئيس الخدم في الباب محني الرأس باسماً

— هل مدام وحدها ؟

— نعم .

فمشى قدامها الى وسط القاعة والناس نساء ورجالاً يحدجونها بالانظار معجبين مستغربين . فقالت سيدة وقد رفعت المنظار الصغير الى عينيها . اميرة هندية في زي باريسية . روح العصر ! روح التمدن ! فاجابها الرجل

— وقد تكون مسلمة خرقت حجابها . جميلة — فتانة .

وقف رئيس الخدم عند طاولة صغيرة يعد للسيدة الكرسي . فجلست مريم والتيه جالس بين عينيها والاباء يكلل جمالها . فقدم اليها قائمة الاطعمة . ثم قائمة الخمر . فألقت هذه جانباً وجعلت تقلب نظرها في تلك وهي تفكر بالمرة الاولى التي رأت مثل هذه القائمة فهالها تعدد الالوان فيها وظنت انه على المرء ان يأكل منها كلها .

ثم جاء الخادم ينتظر امرها . فاصدرته وهي سامدة الرأس والقائمة بيدها دون ان تنظر اليه .

— أن دينه . أه دزوليف . أه بوي . سان جرمن . فيله دي سل . بونه ان كسرل . سالاد انديف . ركفور . دمي تاس . أه أين دميم بوتاي دي مم سك »

وترجمة ذلك في لغتنا الشريفة — ولكن الترجمة تذهب بلذة هذه

الاطعمة الغريبة الاسماء . وحسب القارىء ان يعرف انها تبتدىء بفنجان من الخمر وتنتهي بزجاجة من الشمبانيا ليدرك بعض ما جال في نفس مريم تلك الليلة .

ولما عادت الى غرفتها بعد العشآء عمدت الى التلفون فطلبت علبة من السكاير المصرية وجرنال المسآء . فجاءها الخادم بالعلبة على صينية من الفضة فتناولتها ووضعت مكانها قطعة من النقود فاحنى الخادم رأسه شاكراً

أشعلت مريم السيكارة تلو الاخرى وهي تتصفح الجريدة وتفكر في طريقة تحل بها لغز القضآء فيها فاخذت السطر الاول من اول عمود في الصفحة الاولى من الجريدة والسطر الاخير من آخر عمود في صفحتها الاخيرة فكتبتهما على ورقة وجمعت كلماتها فاذا هي ثماني عشرة كلمة ، ثم جمعت حروفها فاذا هي خمسة وستون حرفاً . فضربت العدد الاول بالثاني . ثم قسمت الحاصل على تسعة اي تاريخ ذاك اليوم . ثم على ثمانية عشر اي عمرها فكان خارج القسمة عدداً مفرداً . ثم اسقطت منه اربعة وهي عدد الحروف في اسمها فظلت النتيجة عدداً مفرداً .

فنهضت اذ ذاك ونزعت ثيابها ونامت مطمئنة البال . وذهبت في صباح اليوم الثاني الى بيت الشركة ، شركة البواخر ، تعيد تذكرتها . فقبلت التذكرة في الشركة وأعيد الى مريم بعد اسقاط عشرة بالمئة من الثمن وهي الاصول ما تبقى من المال . فضمته الى ما معها وعادت الى النزل تحسبها

حسابها ·

— هذه القيمة لا تقوم بنفقاتي في هذا النزل اسبوعاً كاملاً · علي اذاً ان انتقل منه ·

واخذت الجريدة تطالع في عمود الاعلانات منها فكشت على ورقة اسماء بعض النزول الخصوصية (پنسيون) وراحت تستكشف خبرها · فتوقفت الى غرفة في واحد منها تدفع فيه لقاء الاكل والنوم في الاسبوع ما لا يقوم بنفقات يوم في النزل الكبير

— حسناً فعلت · غرفتي في بيت مبارك بالناصره لم تكن اكبر من هذه والحمد لله ان لهذه شباكاً وان كان صغيراً · ربي ! لا اظنه فُتح منذ شيد البيت · وهذا المتراكم على زجاجه · لا غبار يعرف ولا دخان ولا صقيع · وقد يكون مزيجاً متجمداً منها كلها · لا بأس · وكيف يفتحه · (طق طق طق طق ! !) وجعلت تدق اطار الشباك بكعب حذائها

فسمعت سيدة البيت العلقطقة فجاءت مسرعة

— ما بالك مدموازل

— احاول فتح الشباك

— لا لزوم لذلك مدموازل لا لزوم لذلك

— بل لازم جداً هل أعيش بلا هواء ؟

— الهواء يتتلك مدموازل · نحن في فرنسا لا نفتح الشبابيك قطعياً

— ولماذا الشبابيك اذاً ·

— للزينة مدموازل والنور في بعض الاحايين

— وهل تظنين النور يدخل من هذا الزجاج الاسود ؟ اهذا حجابي ؟ لا لا . (طق طق طق !)

— قد تكسرين الزجاج مدموازل . فتدفعي ثمنه .

— ادفع ثمنه وحبة مسك .

— ماذا تقولين — آبا موس ؟

— قلت في لغتي مدام انني ادفع ثمن الزجاج اذا كسرته . (طق طق طق طق !) والحمد لله فتّاح الابواب والشبابيك . آه . ما اجمل هذا المشهد . وما اكثر المداخن امامي . اذا بردت انظر اليها والدخان يتصاعد منها فتدفئني . الهواء يقتل ! الشباك انما هو للزينة ! هذا اعجب ما سمعت في هذه البلاد — بلاد الزينة — سبحان الله ، والحمد لله فلا بأس بهذه الغرفة وقد فتحت شباكها . والخمسة ادوار تحتي بل المئة درجة الى كوخي اصعدها راقصة — اتمرن عليها .

وجلست مريم عَلَى سريرها تعد مالها ثم قالت — خمسة وثلاثون ذهباً تعيشني هنا اربعة اشهر في الاقل . وان لم اظفر بمئتي اثنتاً ذلك فاقتل هذا الشباك واستلقي عَلَى هذا السرير . وأموت ! الله كريم !

ثم جلست الى منضدة صغيرة في زاوية الغرفة واخذت طاقية من الورق وكتبت عليها ما يلي —

١ — لقد ولى يا مريم يوم الخمر والسكاير واللهو .

٢ً — اسعي منذ الان سعياً متواصلاً .

٣ً — اعرضي عن الرجال واحترسي منهم .

٤ً — مارسي الرقص ثلاث ساعات كل يوم في الاقل .

٥ً — لا تسهري خارج بيتك الا اذا كان في احد الا « تياترات » للمشاهدة والدرس .

٦ً — لا تضيعي من وقتك ساعة في ما لا يعينك عَلَى نيل رغبتك

٧ً — لا تصرفي من مالك فرنكاً واحداً الا في ما يعينك عَلَى نيل رغبتك

٨ً — طالعي من الكتب ما استطعت وبالاخص ما هو منها في موضوع الرقص .

واخيراً — لا تقفلي الشباك الا اذا خفقت في باريس سعياً . وقطعت منها الرجاءً .

من الجواذب الاجتماعية في المغرب اليوم ، التي تجذب النساء فتبعدهن من نعيم البيت وظل الابوين ، او من قداسة المهد والامومة ، وتقذف بهن الى معترك الحياة كالرجال ، جاذبان قويان لا مرد لها ما زالت صحف الاخبار وما زالت المسارح في تلك الديار . فالتمثيل والتأليف — المسرح والقلم — يغريان فتيات شغفهن بالظهور اكثر منه بالعلم والفنون . ولا غروَ فقد أمسكت هذه الكأس عن المرأة احقاباً من الزمان . اي الكأس التي تكمن العقرب في ثمالتها كأس الشهرة والمجد الباطل . فالمرأة اليوم تشارك الرجل بها ولا تبالي بما تقاسي منها . والرجل هناك وان بالغ في احترامه المرأة واجلالها

بشرب غالباً الكأس وتقدم لها الثمالة وما كمن فيها · لذلك كان حظ النسآء من المسرح والقلم قليلاً والقليل من السم كثير ·

على ان منهن من تبتغي غير الشهرة والمجد الباطل · ومنهن من لا تبتغي غيرها · ومنهن وهن الكثيرات يمسين من ادوات الـ « تياتر » مثل سائر العمال يحركهن رجل لا ينبض فيه عرق من عروق الشرف والعطف والحنان · ويا لها من اجزاء صماء في آلة صماء دولابها في يد المدير وزيتها في مال المتفرجين من الناس · قلنا ان منهن من لا تبتغي الشهرة · وماذا اذن ؟ انها تبتغي التصعيد في سلم الاجتماع علّها تفوز في الطبقات العالية فوقها بمن يكفل لها نعيماً عماده الامومة والمهد · وهذا حلم جميل اذا صح · هي رغبة شريفة اذا حققتها الليالي ·

وشواذ القاعدة نذكره انصافاً هو ان من النسآء من وهبن مثل الرجال مواهب سامية في الفنون الجميلة فيوثرن الفن على الزواج · ولا يؤثر على الحب · يعشن ، لا عاش اعداؤهن ، كنزلان الفلاة يصنن ويُصدن الى ان يجيئهن « هادم اللذات ومفرق الجماعات »

اما مريم الناصرية فشغفها بالرقص شغف ذاتي ينحصر مثل توحيد الصوفي بالذات الباطنية · شغف مجرد لا تتصل اسبابه اي في حالته الباطنية بواحد من اسباب هذه العاجلة · وان فتاة ذهنها خالٍ من خزعبلات الاجتماع لا تستهويها الشهرة ولا المجد يغريها · فهي لم تنشأ في وسط غربي تتراجع فيه صباح مسآء وليل نهار اصداء البطولة الكاذبة والشهرة العازبة · احبت

الرقص كما يحب الناسك كوخه ، والسالك ربه ، والسكير كأسه ، والشاعر عروس شعره . وصارت تود الظهور على المسرح لتقرب مما ظنته منتهى الكمالات . فعولت على نجيب مراد فخانها ، فنبذته من قلبها غير آسفة وتوكلت على الله . توكلت على الله بعد ان حفرت في لوح قلبها تلك الوصايا وعاهدت نفسها ان تقيم عليها وتحتفظ بها جهدها .

وفي اليوم الثاني بعد ان نقلت الى تلك الغرفة العالية الصغيرة خرجت في ثوب بسيط انيق من الجوخ الكحلي . فعرجت على بياع الزهور وابتاعت اقمامة من الياسمين زينت بها صدرها وهي تقول — هذه لازمة في بلاد زينتها اهم ما فيها والشبابيك في بيوتها تعد من الزينات

وراحت تقصد اول « تياتر » زارتها في باريس وشرلت الخادمة . فطلبت ان تقابل المدير فقال لها احد الحجاب — المدير لا يقابل احداً اليوم .

— وهل يقابلني غداً

— وما غرضك مدموازل

وفي عالم التمثيل حتى العجوز تُدعى آنسة

— الرقص .

— طالبة ؟

— نعم .

— تعالي غداً بعد الظهر .

فعادت في الوقت المعين ولبثت تنتظر برهة فخرج المدير من مكتبه وقابلها

واقفاً وصرفها موجزاً متلطفاً — لا فراغ عندنا اليوم مدموازل .

فراحت مريم تطلب مقابلة مدير آخر فصدها الحاجب — المدير مدموازل لا يقابل الطالبات . فصوبت خطواتها الى « تياتر » اخرى فلم تفز برغبتها . وظلت مريم تبحث اسبوعين فاعياها البحث . ولكنه لم يثبط من عزمها وما اورثها القنوط .

اعادت الكرة وقد اتخذت لنفسها خطة جديدة . وقفت ذات يوم في باب احدى التياترات الكبيرة ونور الامل يبرق في جبينها وابتسامة الياسمين تونس قلبها .

— قل للمدير ان راقصة من الشرق تروم مقابلته .

— وما الاسم مدموازل ؟

— راقصة من الشرق ماذا يهمك اسمي ؟

— قد يهم المدير مدموازل .

— الرقص لا الاسم يهم المدير . قل له ان راقصة مصرية —

فاعجب الحاجب بلهجة الفتاة الغريبة وبحسنها وعاد بعد هنيهة يقول — ان المدير يقابلك غداً بعد الظهر .

فراحت مريم تعلل نفسها بالامال وعادت في اليوم الثاني فقابلها المدير بمكتبه . وبعد ان حدثها في ما تحسنه وفي ما تبتغيه قال

— الراقصات اللواتي نستخدمهن مدموازل يتعلمن الرقص صغيرات . يدخلن مدرسة الـ « أبرا » وهن في الرابعة او الخامسة من سنهن . فيتدرجن

تدريجاً الى كمالات الفن والى الشهرة . اني لا أشك مدموازل . آسف جداً . نهارك سعيد .

خرجت مريم من المكتب وهي تقول — ما اقسى قلوب هؤلاء الناس . لم يسألني واحد منهم ان ارقص ليعرف ما اذا كنت احسن الرقص . ووقفت ذات يوم في رواق الـ « تياتر فرنسه » جريئة يائسة تشخص بعينيها الى تمثال الشاعر دي ميسه فخطر لها ان تطرق باب المدير . وقد كانت احاطت علماً باهمية الـ « كوميدي » وبعلو مركزها في عالم التمثيل . ففتحت احد الابواب تقدم رجلاً وتؤخر اخرى، واذا برجل ذو اهابة واجلال يتخلل الشيب لحيته ويبرق في عينيه نور الكرم والمعروف خارج من احد المكاتب . فاستوقفته مريم تعتذر اليه . فرفع قبعته وسألها حاجتها . فاجابته انها تحب ان تقابل المدير .

— وما غرضك مدموازل ؟

— الرقص — احب ان اكون من الراقصات .

فعلم الشيخ ان الفتاة غريبة وعطف عليها لسذاجتها .

— وهل تحسنين الرقص .

— نعم .

— واين تعلمت

فاضطرب عَلَى مريم .

— من اي بلاد انت مدموازل ؟

— من فلسطين ·

فرفع الشيخ حاجبيه مدهوشاً

— وهل رقصتِ مرة على مسرح ما ·

— لا يا سيدي ·

فاستغرب امرها ورثى لحالها واشار بيده الى باب أن ادخلي · فدخلت مريم الى مكتب فخم حافل بالصور والتماثيل والكتب والجرائد والمجلات

— اجلسي مدموازل · واعلمي ان الطريقة التي تسلكينها لنيل رغبتك لا تجديك في هذه المدينة نفعاً · فان بين مدراء الـ « تياترات » والممثلين طلاب المراكز وحدة عظيمة قد احتلها فريق من الناس يدعون وكلاء وسماسرة · ولا يمكنك ان تفوزي بشيء من احد المدراء الا بواسطة احد الوكلاء · ساعطيك كلمة الى سيدة من هؤلاء قد تنفعك وقد لا تنفعك ·

وكتب الشيخ سطرين على رقعة دون ان يسأل الفتاة اسمها · وسلمها الكتاب قائلاً — بُن شنس مدموازل · ثم شيعها الى الخارج ودلها كيف تصل الى مكتب تلك السيدة ورفع قبعته مودعاً · ومكرراً — بُن شنس مدموازل · وراح يقول في نفسه — ما ابعد اسبابك يا باريس وما اكثر اشراكك · حتى من فلسطين تجتذبين فريسات جمالك ومجدك واضاليلك !

وصلت مريم الى ذاك المكتب فاذا هو غاص بالممثلات والراقصات الطالبات عملاً · وهناك يعني بامرهن شاب يسجل اسم كل واحدة

وعنوانها في سجل ثم يسألها في اي مسرح لعبت او رقصت اخيراً واي نوع من الرقص رقصها وماذا تطلب اجرة الخ . واذا كانت الطالبة جديدة يصف الكاتب ملامح وجهها وشكلها وقدّها حتى ووزنها كأنه يكتب لها تذكرة مرور . فتدفع اذ ذاك الامرأة رسم الوكالة وتعود الى بيتها تنتظر جواباً فيه باب مفتوح للارتزاق . وقد تنتظر شهراً بل شهرين فيجيئها جواب لا باب فيه لامل في صدرها سجين .

اعطت مريم الشاب الكتاب فلما قرأ عَلَى الغلاف اسم الا « كوميدي فرنسه » ادخلها داخل الحاجز وقدّم كرسياً فجلست . ثم دخل بالكتاب الى غرفة اخرى وعاد يقول لها ادخلي .

فدخلت مريم فرحة مستبشرة والطالبات المنتظرات يلقنها بانظارهن ويغبطنها عَلَى تيسير امرها . واذا هي في حضرة سيدة بيضاء الشعر زرقاء العين شاحبة الوجه غليظة اليد تتكلم دون ان تحرك شفتيها .

— انتِ من فلسطين .

— نعم مدام .

— وكيف وصلتِ الى مدير الا « كوميدي » ؟

فابرقت اسارير مريم سروراً لعلمها ان من اعطاها كتاب التعريف هو المدير بعينه .

— رأيته خارجاً من مكتبه فكلمته .

فقطبت السيدة ما بين عينيها وزمت شفتيها

— وما اسمك ؟

— مريم — ثم ترددت ثم قالت — مريم ·

فكتبت السيدة على طلحية امامها مريم مريم ظناً منها ان اسم الفتاة الثاني مثل اسمها الاول ·

— واي متى جئت باريس ؟

— منذ اربعة اشهر ·

— ولم تظهري بعد على احد مسارحها · ولم تتعلمي الرقص في احدى مدارسها · فاعلمي اذاً يا مدموازل ان عليك ان تبتدئي مثل سائر المبتدئات وهن يعددن بالمئات وسأسعى في سبيلك جهدي لان مدير الـ « كوميدي » اوصاني بك ·

ثم افهمت مريم شروط الوكالة وكبست زراً فجاء الكاتب فاعطته الورقة التي كتبت عليها اسم مريم وعنوانها ·

— سجل هذا الاسم في السجل — ادفعي الرسم للكاتب مدموازل ·

عادت مريم الى غرفتها ذاك اليوم والسرور يجول في وجهها · ولبثت تنتظر البشرى من تلك السيدة · ولى الاسبوع يتلوه الاسبوع وكل الشهر شهر الانتظار ومريم تتجرع مر الصبر وتتمرن اثناء ذلك على الرقص · ولكن كل آت قريب · ففي صباح ذات يوم استلمت كتاباً من تلك الوكالة فعمدت لساعتها الى قبعتها تلبسها وعرجت على بياع الزهور فزينت صدرها باضمامة من الياسمين وراحت تلبي دعوة السيدة صاحبة الشعر الابيض والوجنة

الشاحب المنكوب . فاعطتها بطاقة الى صاحب قهوة في « منمرتر » فقالت — هذا جل ما تفوز به مثلك الان . كوني في القهوة الساعة التاسعة صباحاً

ولم تتخلف مريم . بل وصلت قبل الوقت المضروب فلقيت هناك سرباً من البنات الباليات الاثواب ، الشاحبات الوجوه ، الغائرات العيون ، كأن الواحدة منهن عصفور بلله القطر يلبثن منتظرات . ثم جاء رجل غليظ الجثة ، سمين الوجه ، كث اللحية ، ضيق الجبين ، جاحظ العين ، فأمرهن بالوقوف امامه فوقفن صفاً وبينهن المسحاء والعجزاء والغراء والدعجاء . والدعشوقة الرسحاء . فنشأ يقلب فيهن نظره ويفحصهن فرداً فرداً فتدور الواحدة كالتمثال على محورها فيجسها كما يجس الغنام غنماً يروم ابتياعها . الى ان انتقى منهن ستاً من لون واحد ، وقد واحد ، ووزن واحد ، وصرف الاخريات ومريم الناصرية منهن . على انه كلمها وهو يزنها ببصره قائلاً — انت حاملة هذه البطاقة من السيدة ؟ . فأحنت مريم رأسها . فشرق الرجل بريقه وهز رأسه وكتفيه وراح يقول في نفسه — جمالها يخسف جمالهن . ولونها يجعلها وحدها محجة الانظار . لا . لا . لا توافق

عادت مريم الى مكتب الوكالة كسيرة القلب ، اسيرة الهم والغم . فوعدتها السيدة خيراً . وبعد اسبوعين اعطتها بطاقة اخرى الى مدير احدى الـ « تياترات » الصغيرة . فراحت وهي تكاد تقطع الامل تقف مع العشرات مثلها في الصف حسب العادة . فجاء المدير يفحص وينتقي . ووقف عند احدى الطالبات ، يجس صدرها واوراكها . ثم قال — ادخلي تلك الغرفة واخلعي ثيابك .

فامتثلت الفتاة امره ثم جاءت تمثل امامه عارية فدارت دورتين وهو يدقق النظر في تقاطيع جسمها ثم قال — حسن · حسن · ألبسي ثيابك · ثم اوعز الى واحدة اخرى ان تعمل ذات العمل فدخلت الغرفة عجزاء وخرجت منها عارية مسحاً · فضحك المدير وقال — لا حاجة لنا اليوم بالصبيان

ثم وقف امام مريم يقيسها بناظريه ويزنها

— انتِ من فلسطين الله ! الله !

دوري يا « فلسطين » · دوري قليلاً · فدارت مريم وهي منكسة الرأس

— عليكِ خلع ثيابك

فلبثت مترددة ثم رفعت رأسها تهزه اباءً وامتناعاً · فضحكت البنات فتركها المدير يفحص غيرها حتى انجز الفحص والانتقاء · فافرد ستاً من الطالبات غير المناسبات ولم تكن مريم الناصرية منهن · ثم كتب اسماء المختارات وخاطبهن قائلاً — الاجرة ثلاثون فرنكاً في الاسبوع · والتمرين الساعة العاشرة صباحاً وستبتدىء غداً · كنّ هنا في الوقت المعين

لم تسر مريم كثيراً بهذا الفوز وما ملكتها منه الاحلام الجميلة · فجاءت في اليوم الثاني منقبضة النفس تباشر عملها · فتحققت بعد التمرين ما كانت تخشاه ·

« البقية تأتي »